العرب
الجمعة 2020/03/27
السنة 42 العدد 11659

كورونا يكشف عورات العقول وخطاب الشماتة الإسلامي

الأوبئة لا تبالي بدين أو مذهب ولا تهزمها إلا سلامة أساليب العلاج

انتشار فايروس كورونا في العالم، وفي كل أقطار العالم العربي والإسلامي، لم يختبر فقط سلامة الإجراءات الصحية والطبية، بل عرّى أيضا بنية فكرية كامنة، تعتبر الوباء عقابا إلهيا للأعداء، وتتصور أن المرض "جند من جنود الله" أرسل لكي يغطي وجوه النساء ويمنع الاختلاط وارتكاب الفواحش. بنية فكرية دينية مستترة تستحضر الشماتة في الآخر، وتستسهل تحقق الشفاء بمجرد الانطلاق في الدعاء والابتهال.

تعبئة دينية

سعد القرش
روائي مصري

لبضعة عقود، ظل الجينز الأزرق عنوانا للعولمة، عابرا الحدود والطبقات، ولكنه واجه تحديًا ثقافيا حال دون انتشاره في مجتمعات تفرض على شعوبها الزيّ الوطني في المؤسسات التعليمية وأماكن العمل. وفي تسعينات القرن العشرين ابتذل مصطلح العولمة، وتداوله باحثون عرب في كتب وندوات ومؤتمرات وحلقات بحثية وبرامج تلفزيونية، وأرجعه البعض إلى الرئيس الأميركي هاري ترومان بقوله، بعد إلقاء قواته قنبلتين نوويتين فوق مدينتيْ هيروشيما وناغازاكي عام 1945 "العالم الآن أصبح في متناول أيدينا".

> في استعادة الحالة البدائية يستدعي رفع البلاء بالصلاة، والبعض من المسلمين سارعوا إلى الشماتة بمن ظنوهم أعداءه

وفي عام 2020 يتوحّد العالم بالرعب من فايروس كورونا، توحّد بتكتل شمل إجراءات الوقاية ورصد ميزانيات ضخمة للتوصل إلى اللقاح، وبما يشبه مرض التوحّد؛ فلزم الفرد بيته والشعب حدود بلاده، وألغيت مسابقات رياضية واحتفالات ومعارض ومهرجانات، وأغلقت مطارات وجامعات ومدارس ومسارح ومتاحف ومطاعم، وتعطّلت مشاريع استثمارية، ومُنعت تجمعات منها ندوات علمية للتوعية بخطر الفايروس وسبل مواجهته.

هكذا يعولمنا الفايروس الغامض، ويثبت للمرة الأولى في التاريخ هشاشة الإنسان وعجزه في مواجهة الموت، ويعيد الاعتبار إلى مقولة مارشال ماكلوهن "العالم قرية صغيرة"، ولا أظن أنه توجد أسرة لم يتداول أفرادها اسم الوباء، وينسبون إليه أزمات أخرى نتيجة بقاء الرجال والتلاميذ في البيوت، ويتلقون نصائح شفاهية ورسمية ووعظية، يتطوع بها متخصصون ودجالون وأغنياء أوبئة، عن تفادي الإصابة.

وفي استعادة الحالة البدائية للنفس البشرية يحضر الدين ويستدعي رفع البلاء بالصلاة، والبعض من المسلمين استسهلوا الاستئثار بالله، فسارعوا إلى الشماتة بمن ظنوهم أعداءه، واستعلوا بالإيمان الذي لا يعصم المؤمنين من الفايروس.

يوم الأحد الـ15 من مارس 2020 أعلنه الرئيس الأميركي دونالد ترامب "يوما وطنيا للصلاة. نحن بلد، على مرّ تاريخنا، نتوجه إلى الله من أجل الحماية والقوة في أوقات كهذه.. بغض النظر عن مكان وجودكم، فإنني أشجعكم على التوجه إلى الصلاة كفعل إيماني. معا سننتصر بسهولة". ترامب مثل جورج بوش الذي أعلن أن الغزو الأميركي للعراق حرب صليبية جديدة، كلاهما يتّسق مع روح الدستور الأميركي الذي قدم له جاك دريدا قراءة لحضور الميتافيزيقا في نص الدستور وتطبيقاته، إذ احتكم موقّعو هذه الوثيقة إلى "الله"، وأشهدوه على حسن مقاصدهم. وانتقل الاستناد إلى القوة المطلقة من الدستور إلى الدولار، فاحتمى بشعار "بالله نثق".

العقل الأميركي ممثلا برئيس البلاد لجأ إلى الله، ولكنّ جموعا تمثل قطاعا من العقل العربي الإسلامي مالت إلى تشييء الله وتجسيده، على نحو أسطوري أوردت التوراة بعضا منه، بمصارعة الله للبشر وفوزهم عليه أحيانا. وفي غياب الله ترتكب موبقات أبسطها إنكار صيادلة أن لديهم مطهرات كحولية وكمامات؛ انتظارا لرفع أسعارها.

ومن النهم المادي إلى الاستثمار السياسي للوباء نشطت حشود، في وسائل التواصل الاجتماعي، لتكريس وسم "جند من جنود الله"، والادعاء بأن كورونا عقاب إلهي للصين؛ لسوء معاملة سلطاتها لمسلمي الإيغور في إقليم شينجيانغ. ثم أغرت التعبئة الدينية آخرين فبالغوا في الغيرة على الله، مؤكدين أن كورونا من جنوده، "وما يعلم جنود ربك إلا هو"، وأنه مبعوث لكي "يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر"، فيغطّي وجوه النساء، ويمنع الاختلاط وارتكاب الفواحش. ومن ثنائية الإسلام والكفر إلى المنحى الطائفي، قال البعض إن الوباء منع الإيرانيين من زيارة الأضرحة والطواف حولها.

خطاب الشماتة الإسلامي امتداد لزعم الوعاظ السذّج، في خطب الجمعة عام 2011، أن كارثة المدّ الزلزالي "تسونامي"، الذي ابتلع نحو 20 ألف ياباني في مارس 2011، إنما هو عقاب من الله للكافرين. في ذلك الوقت رأيت واعظا شابا تنفر عروق رقبته فوق المنبر، يستأسد في ميكرفون صنع في اليابان، صارخا بيقين المؤمن أن تسونامي "مجرد جند من جنود الله ضد قوم كافرين".

فإذا كان الفايروس جندا من جنود الله فهل يكون تجنّبه أو مقاومته اعتراضا على إرادة الله؟

في كتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" سجل رفاعة الطهطاوي رحلته إلى باريس عام 1826، إذ احتُجز الوافدون خارج مرسيليا، في "الكرنتينة" وهو الحجر الصحي، وقد اعتادوا "أن من أتى من البلاد العربية لا بدّ أن يُكرتن قبل أن يدخل المدينة". وذكر الشيخ الطهطاوي جدلا بين علماء المغرب حول "الكرنتينة"، فالشيخ محمد المنّاعي التونسي المالكي المدرّس بجامع الزيتونة رأى تحريم الكرنتينة، ولكن الشيخ عبدالله محمد البيرم مفتي الحنفية بالزيتونة قال "بإباحتها، بل وبوجوبها، وألّف في ذلك رسالة، واستدل على ذلك من الكتاب والسنة، وأقام الأول الأدلة على التحريم، وألف رسالة في ذلك، على اعتماده فيها في الاستدلال على أن الكرنتينة من جملة الفرار من القضاء. ووقعت بينهما محاورة أيضا نظير هذه، في كروية الأرض وبسطها، كالبسط للمناعي، والكروية لخصمه"، ومكث الطهطاوي ومن معه في الكرنتينة ثمانية عشر يوما.

الواقعة التي سجلها الطهطاوي استشهد بها أبوالعباس شهاب الدين أحمد بن خالد بن حماد الناصري الدّرعي السّلاوي في الجزء الثاني من كتابه "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"، بمناسبة سفره من مدينة سلا إلى مراكش للقاء سلطانها، وكانت السنة سنة وباء، وجرت المذاكرة بينه وبين العلماء "فيما يستعمله النصارى من أمر الكرنتينة"، واستحضر ما ذكره الطهطاوي في "تخليص الإبريز..".

وقال السّلاوي إن الكرنتينة "تشتمل على مصلحة وعلى مفسدة"، والمصلحة هي سلامة أهل البلد، والمفسدة الدنيوية هي الإضرار بالتجار والمسافرين بحبسهم، "وأما الدينية فهي تشويش عقائد عوام المؤمنين والقدح في توكلهم.. فتعين القول بحرمتها".

> خطاب الشماتة الإسلامي امتداد لزعم الوعاظ السذّج أن كارثة تسونامي، الذي ابتلع 20 ألف ياباني، هو عقاب من الله للكافرين

واتفق معه العلامة الأستاذ أبومحمد عبدالله بن الهاشمي بن خضراء السّلاوي قاضي حضرة مراكش الذي كتب إليه "وأما حكم الكرنتينة فهو ما ذكرتم من الحظر وبه أقول لما فيه من الفرار من القضاء مع المفاسد العظيمة.. ولا يخالف في هذا الحكم إلا مكابر متبع للهوى فماذا بعد الحق إلا الضلال".

أتفهّم كلام السّلاوي في ضوء حدود إدراكه وسياق عصره، تقريبا عام 1879. ولكن تكرار هذا الكلام، مع إضافة حمولات شامتة بمصابي كورونا، يصدر عن عقول مشوّهة تجهل أن الله أكرم وأسمى من التدخل في تفاصيل الحياة لصالح فئة ضد أخرى، وأن الأوبئة لا تبالي بدين أو مذهب، ولا تفرّق بين المسلم وغير المسلم، ولا يعنيها الإيمان والكفر، ولا تنتقي العصاة وتعفي التقاة، ولا تهزمها إلا قوة المناعة وسلامة أساليب الوقاية والعلاج. ولم يفرّق كورونا بين بوذي ومسيحي ومسلم، كما يصيب السرطان أطفالا مسلمين لم يجرّبوا العصيان وليس لله حاجة في ابتلائهم.

كارهو البشر، من رافعي شعار "غزوة كورونا المباركة"، لم يتفكروا كيف يمنع "جند من جنود الله" زيارة البيت الحرام؟ وفاتهم أن في مصر ضحية لذيذة للفايروس، وهي شوكولاتة "كورونا" التي بدأ إنتاجها عام 1919. وفي عامها الأول من مئويتها الثانية سيكون عليها البحث عن اسم جديد.

الوفاق، «حكومة مدنية» تعرف كيف تستغل كورونا عسكريا

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

مواجهة فايروس كورونا من المهمات المدنية للدولة احترمها الجيش الوطني الليبي، لكن حكومة الوفاق الواجهة السياسية لتيار الإسلام السياسي استغلته لأغراض عسكرية.

التصريح الذي أدلى به، يوم الاثنين الماضي، الناطق باسم الجيش الليبي اللواء أحمد المسماري، حول حقيقة الوضع في محيط طرابلس التي تسيطر عليها ميليشيات مسلحة تحت ما يعرف بحكومة الوفاق الوطني، يفنّدُ ما ذهب إليه رئيس المجلس الرئاسي فائز السراج، من ادعاء بأن قوات الجيش التي يقودها المشير خليفة حفتر، اخترقت الهدنة الإنسانية التي دعت لها عدة دول للتركيز على دعم جهود مكافحة وباء كورونا.

المتابع للأحداث يلحظ تناقضا واضحا بين حقيقة الواقع، والتقولات التي تصدر من جماعة السراج في طرابلس، ذلك أن من كان أكثر التزاما ومراعاة للظرف الطارئ والحساس المتعلق بالحذر الشديد من انتشار وباء كورونا، هو الجيش الليبي الذي التزم بالمعايير والتوصيات الدولية، وذلك بتقديم الإسناد الكامل لوزارة الداخلية و اللجنة الأمنية، وفق ما ورد على لسان المسماري الذي قال "وحداتنا جاهزة ومناطقنا العسكرية بالكامل مسؤولة عن تنفيذ قرار فرض حظر التجوال في كل أنحاء ليبيا، نحن نقود المرحلة الحرجة وبالتالي القوات المسلحة تساند وزارة الداخلية كتف بكتف من أجل إجبار المخالفين والمستهترين لاحترام التعليمات"، مضيفا أن "التقدم ليس بالأساطيل الحربية و الآليات بل بالفكر والوعي، وإن كان المواطن واعيا نستطيع تجاوز هذه المحنة".

يأتي هذا في الوقت الذي أكدت فيه أخبار بأن حكومة السراج خصصت بناء كمكان خاص بالحجر الصحي في قاعدة معيتيقة التي يتواجد فيها عسكريين أتراك ومرتزقة سوريون، وهو أمر خطير ويخالف التشريعات الدولية، سواء اتفاقيات جنيف الخاصة بالحرب أو قانون حقوق الإنسان، و"ينافي الأخلاق الليبية والإسلامية وينافي كل الأعراف"، كما جاء على لسان الناطق الرسمي باسم الجيش الوطني الليبي، الذي أكد أنه "لا يمكن وضع مستشفى داخل قاعدة عسكرية تتواجد بها قوات عسكرية أجنبية غازية و تعتبر قاعدة أجنبية محتلة".

المتأمل في الأحداث والتطورات التي تشهدها الساحة الليبية، يقف عند حقيقة مفادها أن الجماعات الإخوانية، وعند كل موقع تتوهم فيه نفسها أنها على قاب قوسين أو أدنى من الاستحواذ على الحكم، تعمد إلى أمرين اثنين: الأول هو ادعاء المدنية والاستعداد للتناوب السلمي للسلطة، وذلك للتسويق الخارجي ومحاولة إقناع العالم بأن لا تناقض بين الأيديولوجيا الإسلامية والممارسة الديمقراطية النزيهة والشفافة وفق المعايير المعتمدة دوليا، والثاني هو الإصرار على إحراج الخصوم السياسيين، والقول إن "المشكلة ليست من عندنا، بدليل أننا نسعى في كل مرة لحكومة وفاق وطني، ولكن غيرنا لا يستجيب".

هذه المظلومية، باتت "كليشيه" يعرفها أصغر المبتدئين في التحليل السياسي، ذلك أن القاعدة تقول بأن الشكائين هم غالبا ما يكونون الظالمين والمعتدين وفق المثل العامي القائل "ضربني وبكى، سبقني واشتكى".

التوافق لدى الإخوان، هو التخفي وراء واجهة شبه ديمقراطية يسيطر فيها قادتهم ويستحوذون على نصيب الأسد من مواقع القرار ووزارات السيادة ثم يؤثثون ويزينون"ديمقراطيتهم" بـ"كومبارس" سياسي لا حول له ولا قوة.

إنهم أمكر وأخبث من هذا بكثير، إذ يطرحون ما يعرف بـ"شخصيات توافقية مستقلة" للإيحاء بأنهم أبرياء براءة الذئب من دم ابن يعقوب، لكنهم في حقيقة الأمر، ينفذون مخططهم عبر حالة من التمويه السياسي وادعاء مد يد العون والمصالحة باسم الحرص على مصلحة البلاد.

المعركة تدارُ من أنقرة

لمسنا هذا في تونس، جارة ليبيا في حدودها الشمالية الغربية، من خلال حركة النهضة وزعيمها راشد الغنوشي، والذي يسعى دائما للظهور في مظهر الحمل الوديع أمام "ذئاب الليبرالية المتوحشة والعلمانية الكافرة، واليسار المارق"، أما في طرابلس فإن الحاكم الفعلي يدير الأمور من أنقرة، ويلهي السراج بالتفاصيل وطلب التوافقات المستحيلة.

وهذا ما يؤكده موقف وقراءة الجيش الوطني الليبي من خلال المسماري في قوله "على ما يبدو أن الرئاسي في اتجاه والميليشيات في اتجاه آخر.. الميليشيات تدار من تركيا والسراج عبارة عن واجهة سياسية إعلامية يحاولون استغلالها لأبعد ما يمكن". ويتابع المسماري، عبر قراءة لا تتحمل اللبس أو التضليل، ووفق معطيات استخبارية تستند إلى الواقع الميداني "الواقع أن المعركة لا تدار من طرابلس بل من أنقرة، و قادة المعارك هم الآن بالكامل أتراك".

ومع ذلك، فإن الجيش الوطني الليبي، وكمؤسسة عسكرية تحترم اللوائح والأعراف والالتزام بميثاقها الأخلاقي والوطني، وجه رسالة مفادها أنه يحترم المطالب الدولية للهدنة والتهدئة من أجل إعطاء فرصة لمقاومة كورونا ولأسباب إنسانية، بينما لا يحترم الطرف الآخر ذلك، لأن الأوامر تأتيه من أنقرة.

الحقيقة أن السراج لا يمتلك من مدنية المنصب الذي يقدم من خلاله نفسه، سوى بدلة وربطة عنق، وإيهام الجارة تونس بالتزام حسن الجوار، مشيدا بتجربتها الديمقراطية التي ينكرها على شعبه، وعارضا عليها "التعاون والمساعدة في محاربة كورونا". هذا في الوقت الذي تتاجر فيه ميليشيات طرابلس بهذا الوباء، وتصنع من خلاله متاريس بشرية في لعبة تمويه واستثمار لهذا الوباء أمام الرأي العام الدولي.

> القلاع المدنية تتحول إلى مخابئ إخوانية مموّهة في أعراف الجماعات الإسلامية التي دأبت منذ نشأتها على لغة التبييض والتخفي

هكذا تتحول القلاع المدنية والحقوقية إلى مخابئ إخوانية مموهة في أعراف هذه الجماعات التي دأبت منذ نشأتها، على لغة التبييض والتخفي، وقد نجحت في ذلك مرات عديدة، لكنها اليوم باتت مثل قصة "الراعي الكذاب" الذي لم يعد أحد يصدق استغاثاته فمن "جرّب المجرّب كان عقله مخرّب" كما تقول العامة.